اهداءات ٢٠٠٣

اسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيونى

الإسكندرية

المنقذ من الضلال

المنقذ من الضلال

والموصل إلى ذي العزّة والجلال

تأليف

حجة الإسلام أبي حامد الغزالي

حققه وقدم له

الدكتور جميل صليبا الدكتور كامل عياد

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة

دار الأندلس - بيروت، لبنان
هاتف: ٣١٧١٦٢ - ٣١٦٤٠١ - ص.ب: ٤٥٥٣ ١١ - تلكس ٢٣٦٨٣

الغزالي

حياته ـ فلسفته ـ المنقذ من الضلال

توطئة عامة

ظل الكثيرون من المستشرقين مدة طويلة من الزمان ينكرون على الفلسفة الإسلامية استقلالها في البحث ، وانتهاجها طريقة خاصة في معالجة المسائل الفلسفية ، حتى قال « رينان » : « ان الفلسفة الإسلامية ليست سوى فلسفة اليونان القديمة مكتوبة بحروف عربية »[1] .

ولكن هذا الحكم قد تغير في الأيام الأخيرة ، واخذ المستشرقون الباحثون في حضارة الإسلام يعترفون للفلاسفة المسلمين بأن لهم طابعاً خاصاً مستقلاً ، وانهم استطاعوا التقدم في الفكر البشري خطوات إلى الأمام في حل معضلات العالم .

---

(١) راجع :

E. Renan : Histoire générale et sytème comparé des langues Sémitiques, Paris 1855 p. 10.

ان أهم موضوع ظل الفلاسفة الإسلاميون يحومون حوله في جميع الادوار ، هو محاولة التوفيق بين الدين والفلسفة ، ولعل انصراف المفكرين إلى هذا البحث كان من اكبر العوامـل في توجيه الفلسفة الإسلامية إلى ناحية معينة ، حتى اكتسبت صبغة خاصة تميزها من غيرهـــا ، وتجعلها مستقلة في كثير من المسائل عن فلسفة اليونان القديمة ، التي لا ينكر تأثيرهـا العظيم في المسلمين ، وكذلك عن فلسفة الهند التي اقتبس المسلمون منها شيئاً طفيفاً .

ولما قام الفلاسفة الإسلاميون يحـاولون تقريب تعاليم الدين من فلسفة أرسطو ، التي اعتبروها في المقـام الأعلى من الحقيقة ، وأخذوا يسعَون لا خضاع العقائد الدينية لمباديء هذه الفلسفة ، كان من الطبيعي أن يثير ذلك معارضـة شديـدة لدى المتكلمين المسلمين ، الذين هبوا يدافعون عن العقائد الإسلامية بحجج الفلاسفة أنفسهم ، ونجحوا في التوفيق بين كثير من المبـادىء الفلسفية والعقائد الدينية أكثر من نجاح علماء المسيحية ، الذين حاولوا ذلك أيضاً بعد انتقال آراء أرسطو وشروحه الاسلامية إلى أوروبا . ولا شك في أن السبب في تفاوت هذا النجاح يرجع قبـــل كل شيء إلى بساطة أسس الدين الإسلامي ، بالنسبة إلى التعاليم المسيحية المركبة . وترجع أولى محاولات التوفيق بين الدين والعقل في العـالم الإسلامي إلى المعتزلة ، الذين ساقهم البحث في

العقائد الدينية إلى معالجة بعض المسائل الفلسفية ، فرغبوا لذلك في الاطلاع على مؤلفات الفلاسفة اليونانيين . وهكذا كان مذهب المعتزلة من أهم العوامل في اندفاع المسلمين ، إلى ترجمة كتب أرسطو وغيره من القدمـــاء إلى اللغة العربية .

وقـد انتشرت مباديء الفلسفة اليونانية بسرعة بين المسلمين ، وقام « **اخوان الصفا** » يحاولون في رسائلهم نشر هذه المبـادىء ، ويستندون اليها في نقد الاديان والانظمة الإجتماعية السائدة .

فأصبح من الصعب بعد ذلك على علماء الكلام الدفاع عن العقائد الإسلامية دون الاستناد إلى الحقائق والشواهد العلمية . ولا شك في أن انتساب « الإمـام الأشعري إلى المعتزلة ، واشتغاله بالمسائل الفلسفية قبل قيامه لدعم عقيدة أهل السنة ، كان له تأثير كبير في إدخال كثير من النظريات العلمية في علم الكلام ، مثل « نظرية الجوهر الفرد » ، التي أخذهـا المتكلمون عن فلسفة اليونان الطبيعية ، ولكنهم توسعوا فيها واستخدموها لأغراضهم الدينية . وكان طبيعياً أن يصيب النظريات العلمية شيء من التبديل ، حتى تصلح لخدمة مقاصـد المتكلمين . وهكذا انتهى الأمر إلى حالة شاذة نرى فيها الفلاسفة يحاولون اخضاع العقائـد الدينية

شاباً ، يبدي عدم اطمئنان الى ادلة المتفقهين الملفقة . وقد سافر إلى « نيسابور » للتبحر في علم الكلام على أحد كبار الصوفيين ، وهو « امام الحرمين » ، وهناك درس المذاهب واختلافها ، وتعلم الجدل والمنطق ، وقرأ الفلسفة ، وابتدأ منذ ذلك الوقت بالكتابـــة والتأليف . وربما كانت نشأة شكوكه في العلم هناك أيضاً .

وبعد موت « إمـــام الحرمين » (سنة ١٠٨٥) تعرف الغزالي بوزير السلجوقيين « نظام الملك » ، الذي أسس في بغداد المدرسة النظامية ، وهي تعد أول جامعـــة للعلوم بالمعنى الحديث ، فعين الغزالي استاذاً فيها سنة (٤٨٤ هـ ــ ١٠٩١ م) . ونال هناك شهرة واسعة ، « لفصاحة لسانه ، ونكته الدقيقة ، واشاراته اللطيفة » .

وفي بغداد انصرف الغزالي الى دراسة الفلسفة دراسة عميقة ، فطالع كتب الفارابي ، وابن سينا ، وألف على أثر ذلك كتابه « **مقاصد الفلاسفة** » ، الذي يدل على اطلاع واسع ، ومعرفة دقيقة بالفلسفة . وقد قال « الإمام الغزالي » لتسويغ عمله هذا : انه اراد الابتداء بشرح آراء الفلاسفة ، قبل الاقدام على نقدها ، وابطالها . ولئن امتاز كتاب « مقاصد الفلاسفة » ببحثه العلمي والتزامـــه الحياد التام ، لقد أشارت جميع الدلائل الى ان الغزالي لم يؤلف هـــذا الكتاب عن رغبة مجردة في العلم ، بل سعياً لطمأنة شكوكه الفكرية وتهدئة

اضطرابه الباطني . والدليل على هذا أيضاً انه ألف بعد ذلك كتابه المشهور « **تهافت الفلاسفة** » لابداء شكوكه في قيمة العلم ، وبراهينه المنطقية .

وقد بلغت شكوك الغزالي درجة جعلته يعتزل التدريس ، ويترك الاهل ، والولد ، والمال . ويخرج من بغداد في سنة (١٠٩٥) بعد اتمام **تهافت الفلاسفة** ، أو بعد ذلك بقليل . ولم يستقر رأيه على رفض مـــا ناله من جاه ، وتقدم ، وشهرة ، الا بعد تردد طويـل ومجاهدات نفسية عنيفة . ان مثله الاعلى كان أسمى من هذه الدنيا ، وقد عرف انه يستطيع مكافحة رذائلها ، وابطال علومها عن غير طريق العلم ، الا أنه تيقن أنه يجب عليه سلوك طريقة أُخرى ، ترتفع به فوق هذا العلم ، وينفذ بها إلى أعماق الحقيقة .

وقد أُصيب في هذه المدة بمرض شديـد قطع عنه كل أمل في الحياة ، وانكشفت له أثناء ذلك مهمته الحقيقية ، فاخذ في تهذيب نفسه بالرياضة ، والتمارين الصوفيـة ، حتى يستطيع التأهب للمستقبل ، والقيام بمهمـة الاصلاح الديني والإجتماعي والسياسي في العالم الإسلامي . وكم كان الإسلام في حاجة قصوى إلى قيام رجـل كالغزالي ، يهيء نفسه للدفاع عن العقيدة الدينية ، في الوقت الذي كان فيه الفرسان الصليبيون في أوربا يتأهبون للهجوم على بلاد المسلمين . وكان الغزالي يعتقد اعتقاداً راسخاً أنه يستطيع إصلاح غيره بعد

إصلاح نفسه ، وأنه يقدر أن يكون من المجددين للدين ، الذين يقول الحديث فيهم : « إن الله يرسلهم على رأس كل مئة[١] » .

خرج الغزالي من بغداد قاصداً الحج إلى بيت الله الحرام ، فظل مدة عشر سنوات تائهاً ، يتنقل في زي الفقراء ، من دمشق إلى القدس ثم إلى مصر ثم إلى الاسكندرية ، وكان يقضي كل أوقاته في العبادة معتكفاً ، زاهداً ، يجاهد نفسه ، ويقهرها ، يجول في البلدان ويزور المساجـد ، ويأوي إلى القفار ، وينزوي في المغارات ، ويتعرض لأنواع المشاق والمحن..

ثم انتهى الغزالي من هذه الرحلة ، بعد أن عزم على الدعوة إلى الإصلاح بطريق العمل ، وقام يؤلف كتابه « احياء علوم الدين » ؛ ثم رجع إلى « نيسابور » ، فانقطع إلى الدرس ، والوعظ والعبادة ، ومات في موطنه طوس (سنة ٥٠٥هـ ـ ١١١١ م) .

وتدل ترجمة الغزالي على ان هناك صلة وثيقة بين حياته وتطوره الفكري ، فكما دفعته اضطراباته الباطنية وشكوكه الفكرية ، إلى تغيير مجرى معيشته ، كذلك أثرت رحلته ، واعتكافه ، ورياضته ، في توجيه افكاره ، وتحديد طريقته ، وشوقه إلى الاصلاح العلمي في الدين ..

---

(١) المنقذ : راجع باب سبب نشر العلم الصفحة الثانية .

ويظهر أن الغزالي لم يترك الكتابة والتأليف ، حتى في فترة السنوات العشر ، التي قضاها في التنقل والعبادة .. وقد كتب في تلك المدة قسماً كبيراً من « إحياء علوم الدين » ، وكثيراً من كتبه الدينية ، وبلغت مؤلفاته عدداً ضخماً ، وتدور مباحثها كلها حول الفكرة الدينية ، التي شغلت حياته . وهذا ما يجعل لها ميزة نادرة ، وهي وحدة الموضوع ، ووضوح الفكرة الاساسية ، وقوة التعبير في الدفاع عن نظرياته . وفي الحقيقة لقد كان للغزالي أسلوب تتدفق منه الحياة ، بعيد عن الصناعة اللفظية ، غاية في الصراحة والوضوح . يشعر القارىء ، في كل جملة من كلامه ، بأن هناك قلباً يخفق ، وفكراً يجول ، وإرادة تملي . وقد استُلفِتَت أنظار الغزالي إلى أغلاطه اللغوية ، وطلب منه العناية بالفاظه وتراكيبه ، فأجاب أن قصده انما هو « المعاني وتحقيقها دون الالفاظ ، وتلفيقها » . ونحن نحمد الله على عدم اشتغال الغزالي بعلوم اللغة ، وعلى قلة اهتمامه بصناعة الالفاظ ، فإنه لو اعتنى بهذه الناحية لما امتازت كتابته بهذه القوة والسلاسة في التعبير .

ولا نريد أن نحصي هنا جميع مؤلفات الغزالي ، بل نكتفي بذكر المهم منها ، أي بما له علاقة بالفلسفة ، فنبدأ بكتاب « **المنقذ من الضلال** » الذي ألفه في أواخر أيامه ، والذى لا تجد في الآداب العالمية إلا قليلاً من أمثاله من

ناحيــة الموضوع . فهو يشرح تطور الغزالي في التفكير ، والسعي وراء الحقيقة ، لا بل هو يترجم عن حياته الفكرية، ويشرح شكوكه ، ومباحثه في مختلف المذاهب ، قبـــل الوصول إلى رأي يطمئن اليه .

ثم كتاب « **مقاصد الفلاسفة** » ، و « **تهافت الفلاسفة** » ، و « **معيار النظر** » في المنطق ، ثم « **ميزان العمل** » في الأخلاق . وأهم مؤلفاته وأكبرها كتاب « **احياء علوم الدين** ». الذي شرح فيه طرق النجاة للمسلمين ، ببيان حقيقة العقائد، وتفصيل المعاملات ، والعبادات .

فلسفة الغزالي

ان الأثر العظيم الذي تركه الغزالي في التفكير الإسلامي، يرجع في الدرجة الأولى الى أنه كان المفكر الأول ، والوحيد الذي لم يكتف ، مثل علماء الكلام ، باقتباس بعض مسائل الفلاسفة ولا محاولة نقض بعض آرائهم ، بل قـام يسعى لتهديم كل البناء الذي أنشأه الفلاسفة الاسلاميون على أساس الفلسفة اليونانية ، فشرح لهذه الغاية جميع نظريـاتهم من الوجهة العامـــة ، وحاول إظهار ضعف براهينها وفساد نتائجها ، مستنداً في كل ذلك الى نظرية خاصة له في المعرفة ، تدل على دقة المشاهدة ، وعمق النظر ، وقوة التفكير .

نقيمة الغزالي الفلسفية تظهر في الناحيـة السلبية قبل غيرهـا ، أي في قوة نقده للنظريات الفلسفيـة . وهو في ذلك كثير الشبه بالفيلسوف الانكليزي « دافيـد هيوم » (David Hume) .

على أن عمـل الغزالي لم يقف عند النقد والتهديم ، كما هو الحال عند معظم المشككين ، بل تعداهما إلى تشييد صرح ديني وأخلاقي شامخ ، لا تُنكر مكانته في حضارة الاسلام الفكرية ، رغم أنـه كان قائماً على اسُس قديمة ، ورغم أن علاقته المباشرة بالفلسفة كانت محدودة جداً .

وقد نجح الغزالي بصورة خاصة في معالجة مسألة الخلاف بين الفلسفـة والدين ، وهي التي شغلت الأفكار عصوراً طويلة ، فعرف كيف يحدد البحث في الموضوع ، واستطاع أن يتوصل الى حل ، لا نزال حتى اليوم نعترف له فيـه بالابداع ، والطرافة ، وقوة الحجة ، ونشعر بكثير من الاعجاب به ، بل والاطمئنان اليه .

ظلت أفكار الغزالي في بادىء الأمر تتردد مدة طويلة بين الدين والفلسفة ، رغم أن الناحية الدينية كانت في الباطن أقوى عنده من الناحية العلمية — الفلسفية . ولم تتجاذبه الشكوك ، ولا يطول به البحث والتفكير ، الا لانّ فكره الثاقب ، وشعوره الحي ، وعاطفته القوية ، لم تطمئن إلى مذاهب المتكلمين ، وأدلتهم المصطنعة في اثبات حقيقة الدين .

ومع أن شكوك الغزالي لم تستمر الا فترة محدودة توصل بعدها إلى معرفة اليقين ، فان هذه الشكوك تستحق كل الاهتمام من الوجهة الفلسفية ، لأنها تدل على نظرة عميقة في نظام الكون وتطوره ، ولأنها تتعلق بمسائل اساسية في الفلسفة ، لم ينتبه لها القدماء ...

فهو قد بحث في نظرية المعرفة ، ومعيار اليقين ، وتوصل بعد الشك الى بيـان حقيقة العلم ، بطريقة الحدس الباطني وبأسلوب يذكرنا بأساطين الفلسفة الحديثة .

يفضل الغزالي على المتكلمين والصوفية أو الفلاسفة ، الذين اقتبس عنهم جميعاً ، بانـــه سعى لإعطاء كل شيء حقه . والدليل على ذلك انه لم يحاول ، مثل المتكلمين ، اخضاع العقل ومدركاته لعقائد الدين . ولم يعمل كالفلاسفة ، على حصر الإيمان الديني في قوانين العقل واحكامه ، ولم ينصرف كالصوفيين ، الى ناحية الكشف ، والنظر الباطني ، مهملاً الى جانب ذلك العلوم العقلية والعبادات الدينية .

لا ننكر الغزالى الحقائق العلمية ، سواء أكانت رياضية أم طبيعيه ، بل يقول ان الحساب ، والهندسة والفلك ، والطبيعيات ، علوم حقيقية لا شك في صحة براهينهـــا ، وفائدة استنتاجاتها .

ولكن العلم محدد النطاق ، فكما انه لا يجوز بنـــاء

العلوم على الاعتقاد كذلك لا يجوز حصر الدين في أحكام العقل وبراهين المنطق بل إن لكل من هاتين الناحيتين مصدراً خاصاً : العلم يستند إلى العقل ، والدين ينبجس من القلب .

وقد رأى الغزالي ، لإثبات هـذا الرأي ، أن يناقش الفلاسفة مناقشة عنيفة في مدّعياتهم ، وفي محاولاتهم اخضاع الدين للعقل . فاعترض عليهم في كتابه « **تهافت الفلاسفة** » ، في عشرين مسألة رآها مخالفة للدين ينبغي تكفيرهم في ثلاث منها وتبديعهم في الاخرى .

والمسائل الأساسية الثلاث التي كفّر الفلاسفة فيها هي :

١ — قِدَم العالم وأزليته .

٢ — اقتصار علم الله على الكليات دون الجزئيات .

٣ — إنكار حشر الاجساد .

إن المسألة الثالثة ليست ذات قيمة كبيرة من الوجهة الفلسفية . ولكن المسألتين الاولى والثانية قد اضطرتا الغزالي إلى مناقشة كثير من النظريات العلمية والفلسفية ...

فمن المسائل الفسلفية التي تعرّض لهـا الغزالي مسألة المكان والزمان . فهو لا يريد ان يجعل فرقاً بينهما كما يفعل

الفلاسفة : إذ يعتقدون أن العالم له نهاية ، وان المكان محدد، بينما هم يقولون إن الزمان لا مبدأ له ولا نهاية . إزاء ذلك يلاحظ الغزالي انــه لا فرق بين الزمان والمكان فيقول : « كما ان البعد المكاني تابعٌ للجسم ، فالبعد الزمــاني تابع للحركة ، فإنه امتداد الحركة ، كما ان ذاك امتداد اقطار الجسم ... فلا فرق بين البعد الزمــاني الذي تنقسم العبارة عنه عبد الإضافة إلى « قبلُ » و « بعد» وبين البعد المكاني الذي تنقسم العبارة عنه عند الاضافة إلى « فوق » و « تحت »[1].

ومعنى ذلك ان الزمان والمكان هما علاقة بين الاجسام، أو بالاحرى هما علاقة بين تصوراتنا . ولذلك وجد بعضهم أن رأي الغزالي يقرب كثيراً من نظرية « كانت » التي تقول أيضاً : إن الزمان والمكان ليسا من المعاني الكلية ، بل هما صورتان قبليتان سابقتان للتجربــة نستعين بهما على إدراك العالم الخارجي .

على ان أهم مسألة فلسفية تعرض لها الغزالي هي السببية. فهو يقول ، « إن الاقتران بين ما يعتقد في العادة سبباً ، وما يعتقد مسبباً ليس ضرورياً عندنا ؛ بل كل شيئين ليس هذا ذاك ، ولا ذاك هذا ، ولا إثبات أحدهما متضمن لإثبات الآخر ، ولا نفيه متضمن لنفي الآخر ، فليس على ضرورة وجود احدهما وجود الآخر ، ولا من ضرورة عدم احدهما

---

(١) تهافت الفلاسفة ص ٦٥ .

عدم الآخر ؛ مثل : الري ، والشرب ، والشبع ، والاكل ، والشفاء ، وشرب الدواء ... وهلم جرا إلى كل المشاهدات من المقترنات في الطب ، والنجوم ، والصناعات ، والحرف. وان اقترانها لما سبق من تقدير الله سبحانه لخلقها على التساوي ، لا لكونه ضرورياً في نفسه غير قابل للفرق ... »[١] .

ثم يزيد ذلك شرحاً فيقول : « وليس لهم من دليل إلا مشاهدة حصول الاحتراق عند ملاقاة النـار ؛ والمشاهدة تدل على الحصول عنده ، ولا تدل على الحصول به ، وانه لا علة سواه »[٢] .

وخلاصة رأي الغزالي في ذلك : اننـا نشاهد تعاقب حادثتين فنسمي الاولى منهما سبباً والثانية مسبباً . على أن مجرد اعتيادنا مشاهدة هذا التعاقب لا يسمح لنا بأن نجعل الحادثة الاولى علة لوجود الثانيـة — كما يقول قانون السببية . ولا يمكن ان نستدل من تعاقب شيئين بانتظام في مشاهدتنـا حتى الآن على ان ذلك يجب ان يكون دائماً لا يُتصورَ تغيره أبداً .

إن هذا معناه إنكار السببية في حوادث الطبيعة . وقد أجاب ابن رشد عن ذلك قائلاً : « إن مَن رَفَعَ الاسباب

---

(١) تهافت الفلاسفة ص ٥٦ .
(٢) تهافت ص ٦٦ .

فقد رفع العقل .. فرفع هذه الاشياء هو مبطل للعلم ورافع له »[١] .

ولإبن رشد كل الحق في هذا القول لإن جميع العـــلوم تستند إلى قانون السببية .

ليس الغزالي المفكر الوحيد الذي حاول أن ينكر الضرورة العقلية لقانون السببية ، فان « دافيد هيوم David Hume » الذي جاء في القرن الثامن عشر انتقد قانون السببية أيضاً وقال مثل الغزالي ، انه لا يوجد هناك دليل عقلي لنا على ضرورة وجود علاقة بين السبب والمسبب ، وإنما اعتيادنا أن نرى المسبب يعقب السبب بانتظام في جميع مشاهداتنا ، جعلنا ندعي أن الاول علة وجود الثاني . وهذه المشاهدة لا تكفي لاثبات وجود علاقة ضرورية بينهما كما ينص قانون السببية العام .

ولكن رغم هذا الانتقاد ظلّ « هيوم » يعتقد ضرورة التمسك بقانون السببية ، الذي لا يمكن ان تقوم العلوم بدونه ، وهو لم يعترض إلا على إرجاع هذا القـانون إلى ضرورة العقل . وقال : « ان اعتمادنا على صحة قانون السببية إنما نشأ عن غريزة وعادة طبيعية في البشر ، تجعلنا نتيقن

---

(١) تهافت التهافت ص ١٢٣ .